# قراءة في كتاب (محمّد ﷺ: النبيّ ورجل الدولة) للمستشرق البريطانيّ مونتغمري وات

السيّد كاظم عبد الرزاق الحسنيّ[1]

**المقدّمة**

الاستشراق -بشكلٍ عام- نمط من السلوك الثقافيّ الذي أنجزه العقل الغربيّ، وتكمن أهمّيّته المزدوجة، أنّه ينقل تجربةً تاريخيّة بكلّ مظاهرها، ومن بيئة وفضاء مختلفين، إلى بيئاتٍ وفضاءات أخرى، يفيدون منها اجتماعيًّا وسياسيًّا، وتمدّهم بالخبرات وتراكم المعرفة؛ ولذا يرى الدكتور إدوارد سعيد أنّ الاستشراق في أحد وجوهه أسلوب غربيّ للسيطرة على الشرق[2]، ومن جهة ثانية أنّه يعدّ دراسة وتحليل لتراثنا من خلال منظور خارجٍ عنه، فنحن نعاين في الاستشراق وعي الآخر لنا، وهو أمرٌ في غاية الأهمّيّة، نرصد من خلاله معالجات ونقاط قوّة وضعف ربّما لا يلتفت إليها الباحث وهو ينظر: إلى تراثه من الداخل، على أنّه ينبغي أن نتعامل مع هذا الوعي بموضوعيّة تستند إلى خبرة عميقة في الموضوعات التي يتناولها الاستشراق لتفادي الوقوع في شرك (الثقافة الغالبة) على حدّ تعبير ابن خلدون.

هذا النمط من الثقافة تفتقر إليه منظومتنا الثقافيّة العربيّة والإسلاميّة قياسًا بالمنجز الغربيّ، وكان مشروع (الاستغراب) الذي أطلقه الدكتور حسن حنفي قبل عقود في سياق التوازن في نقد المكوّن الثقافي الآخر شعورًا بضرورة بهذا النمط في إغناء ثقافتنا من خلال تجديد آليّاتها وتعميق خطابها، ومحاولة جادّة للخروج من التفكير السلفيّ والتغريبي اللذين مثّلا طرفيْ

---

١. أستاذ جامعي وباحث، العراق.

٢. سعيد، الاستشراق.

الإفـراط والتفريط في كيفيّة التعامل مع الثقافة الغربيّة[١]، كما أنّ هذا المشروع يعيد النظر بالقيمة المعرفيّة للاستشراق، ويزلزل فكرة أنّ ما قيل عن الشرق يعدّ حتميًّا[٢].

ولا شـكّ في أنّ نقد الاسـتشراق وتحليل مقولاته عن التراث العربيّ والإسلاميّ، يشكّل مفصلًا مهمًّا من مفاصل مشروع (الاسـتغراب) وإن كان بشـكلٍ غير مباشر، وفي هذا السياق كانت هذه الملاحظ النقديّة لكتاب المسـتشرق البريطانيّ مونتغمري وات (محمّد: النبيّ ورجل الدولة). وقد توزّعت هذه القراءة على محاور عدّة جاءت كالآتي:

١. التعريف بمنتغمري وات

٢. موضوعيّة مونتغمري وات

٣. منهجه المتّبع

٤. مصادر مونتغمري الإسلاميّة

٥. رأي مونتغمري في شخصيّة النبيّ ﷺ

**أوّلًا: مونتغمري وات**

جاء في موقع (ويكيبيديا) الموسـوعة الحرّة، «وليام مونتغمري وات (١٤ مارس ١٩٠٩م -٢٤ أكتوبر ٢٠٠٦م) كان مستشرقًا بريطانيًّا عمل أستاذًا للّغة العربيّة والدراسات الإسلاميّة والتاريخ الإسـلامي بجامعة أدنبرة في أدنبرة، إسكتلندا. ومن أشهر كتبه كتاب (محمّد في مكّة ١٩٥٣) وكتاب (محمّد في المدينة ١٩٥٦)»، وله كتب أخرى منها (فضل الإسلام على الحضارة الغربيّة)، أمّـا كتاب (محمّد النبيّ ورجل الدولة) الذي ترجمه حمّـود حمّود، فهو بمثابة اختصار لكتابيه المذكورين كما صرّح المؤلّف نفسه في آخر كتابه[٣].

١. حنفي، مقدّمة في علم الاستغراب.

٢. سعيد، الاستشراق، ٣٩.

٣. وات، محمّد النبيّ ورجل الدولة، ٣١٤.

**ثانيًا: موضوعيّة مونتغمري وات**

ترسّم المؤلّف إلى حدّ كبير طريق الموضوعيّة والحياد في عرض سيرة النبيّ ﷺ وملابسات الدعوة إلى الإسلام، وأخذ على كتّاب قومه تقويمهم سيرة النبيّ بطريقة التفكير الغربيّ عن طبيعة الجماعة الدينيّة[١]، وبقوانين العصر الراقي أو (الأقلّ رجولة وشجاعة[٢])، فالمنهج الصحيح لديه يكون من خلال تقويم الأحداث طبقًا لطريقة تفكير النبيّ ﷺ، وطبقًا للمعايير المحليّة والعالميّة السائدة في ذلك العصر الذي عاش فيه النبيّ ﷺ، فلا دليل على خيانة أو شهوانيّة أو رغبة في القتل، بدليل أنّ معاصري النبيّ لم ينتقدوه، ولم يجدوا فيه عيبًا أخلاقيًّا، وقد سعى الإسلام للتخلّص من كثيرٍ من تلك المعايير تدريجيًّا[٣]، وفي هذا الضوء دافع عن النبيّ ﷺ في حملته ضدّ اليهود عمومًا ويهود بني قريظة على وجه الخصوص، وعن الحكم الذي نزل بهم. وهذه الحملة تلقى تجاوبًا لدى منتقدي النبيّ ﷺ من عرب وغربيّين[٤]، وقلّل في موضع آخر من كتابه من أهمّيّة ما قيل إنّ النبيّ أبقى بعض الطقوس الوثنيّة في ممارسات الحجّ؛ لأنّ الإسلام لم يتسامح أبدًا مع أيّ طقس أو فكرة تتصادم مع اعتقاد (لا إله إلّا الله)، فلا بأس -من وجهة نظر مونتغمري- بالإبقاء على طقوس وثنيّة لا تتصادم مع التوحيد، مع تحويل ترميزها إلى ما يتناسب والدين الجديد، كرجم الجمرات الذي تحوّل إلى رمزيّة لرجم الشيطان[٥].

**ثالثًا: منهج مونتغمري**

اعتمد الكاتب طريقة التحليل في عرض الأحداث، ومحاولة رصد الأسباب والنتائج التي كان يتوخّاها النبيّ الأعظم ﷺ، على طريقة فلسفة العلوم التي نشأت مدرستها في الغرب[٦]؛ ولذا

١. م. ن، ١٣٧، ١٥٢.

٢. م. ن، ١٦٨.

٣. م. ن، ٢٥٧، ٣٠٤.

٤. م. ن، ٢٢٤.

٥. م. ن، ٢٩٥.

٦. تعني فلسفة العلم التفسير العلميّ للأنشطة الانسانيّة كالدين والتاريخ والأساطير، وتعنى بفهم موضوعيّ لها، تبيّن ما هي عليه فقط، ولا علاقة لها بالقيمة التي تطلقها تلك الأنشطة، وتعتمد في الأساس على دور القوانين الطبيعيّة

جاء أسلوبه التحليليّ متّسمًا بالنظرة المادّيّة[١] المفرطة التي تغيب في آفاقها الرؤى الغيبيّة والدينيّة التي كانت سببًا رئيسًا في مجمل أحداث الدعوة الإسلاميّة، فكان العامل المادّي بتمظهراته المتنوّعة: الاقتصادي والسياسي والاجتماعي (القبلي) أقوى حضورًا من العامل الدينيّ الغيبيّ، أو العامل الأخلاقيّ، وكذلك التفسيرات الميثولوجيّة، كتحليله لتحريم الأشهر الحرم ووجود الحرم المكّيّ، لعوامل اقتصاديّة ترتبط بانتعاش التجارة في مكّة[٢]، مغيّبًا العامل الأخلاقيّ في حقن دماء الناس الذي كان التشريع ناظرًا إليه، وخلق فرصة زمانيّة ومكانيّة جيّدة للسلام والأمان. وتحليله لقصّة بحيرى الراهب، إذ يعزوها إلى المخيال الشعبيّ (الميثولوجيّ) الذي يسبغ الطابع السحريّ والخوارق على شخصيّة الرجل العظيم[٣]. وكذلك يرى -تخمينًا- أنّ الآيات التي تنسجم مع معتقدات أهل الكتاب ناشئة من تأثير الديانتين (اليهوديّة والمسيحيّة) في تفكير النبيّ لاحتمال وجود لقاءات بين النبيّ ﷺ وعلماء من الديانتين[٤]، وهو ما سبقه إليه مستشرقون آخرون كما نوّه، ولكنّ مونتغمري حاول وضع تكييف اجتماعيّ لهذا التأثير يقلّل من الغلوّ فيه[٥]. وعزا إصرار أبي طالب على حماية النبيّ ﷺ لأسباب عصبيّة فقط[٦]، وقد دفعته هذه الرؤية إلى التشكيك غير المبرّر علميًّا بروايات تاريخيّة كثيرة، كتشكيكه من غير مبرّر معقول ببعض تفاصيل حادثة بيعتي العقبة الأولى والثانية[٧]، وبرواية مبيت أمير المؤمنين في فراش

---

وتأثيرها على السلوك الإنساني، وربط تلك الأنشطة بتلك القوانين، تمامًا مثلما يقوم الفيزيائيّ بتفسير سبب زرقة السماء، فإنّه من خلال القوانين التي لها علاقة بزرقة السماء يقوم بتحليل علل الظاهرة ولماذا أصبحت هكذا، فالتفسير العلمي هو الذي يكوّن علاقة موضوعيّة بين الظاهرة وعللها. ينظر: في ذلك: روزنبرج، فلسفة العلم مقدّمة معاصرة، ٤٧، ٥٦، ٦٠.

١. أشار مونتغمري استطرادًا إلى هذه المنهجيّة في كتابه، ٢٤٧.

٢. م. ن، ٧٠.

٣. م. ن، ١٤.

٤. روزنبرج، فلسفة العلم مقدّمة معاصرة، ٥٦.

٥. م. ن، ٦٠.

٦. م. ن، ٩٨.

٧. م. ن، ١١٠.

النبــيّ ﷺ ليلة الهجرة[١]، وربّما هذا مــن تأثير كتّاب غربيّين كتبوا عن حياة النبيّ بشــكل متحيّز كما أشار بنفســه إلى ذلك[٢]. وافترض مونتغمري أنّ النبيّ محمّدًا ﷺ حاول نمذجة الإسلام على الطريقة اليهوديّة لاستمالتهم من خلال اختيار بيت المقدس قبلةً، وصيام عاشوراء يوم الغفران اليهــوديّ، وإقامة صــلاة الجمعة التي ترتبــط بالتهيّؤ عنــد اليهود لعطلة الســبت اليهوديّة[٣]، واحتمل أنّ تحويل القبلة إلى مكّة بأنّه محاولة لكســب القبائــل المعادية لليهود![٤] ومن الواضح أنّ ذلك رجم بالغيب وليس أكثر، وإنّما التوجّه لبيت المقدس ومن ثمّ التحوّل إلى مكّة، وإقامة صلاة الجمعة كانا امتثالًا لتوجيهات الله سبحانه وتعالى لنبيّه ﷺ، التي تستند إلى شبكة المصالح والمفاســد الواقعيّة التي تعلّل الأحكام الشرعيّة[٥]، أمّا صوم يوم عاشوراء فهو من موضوعات بنــي أميّة. وعنــد حديثه عن فطنة النبيّ وذكائــه في مواجهة مؤامرات الاغتيــال القرشيّ، نقل حادثةً لم يشــكّك بها ولم يقترح تفســيرًا ماديًّا فتركها بلا تحليل، وهــي مؤامرة سرّيّة جرت بين شــخصين لاغتيال النبيّ ﷺ وعندما وصل أحدهما للمدينة لتنفيذ عمليّة الاغتيال واجهه النبيّ بكلّ تفاصيل المؤامــرة، وربّما كان مونتغمري مؤمنًا بها وبمفصلها الميتافيزيقيّ[٦]، ولكن منهجه قد منعه من التصريح بذلك.

وعمومًا نحن نلحظ بوضوح تأثّر مونتغمري في تحليلاته المذكورة بعنصر التاريخيّة في فلسفة العلوم، الذي يعدّ التفســير العلميّ المقبول -من وجهة نظرهم- في تفسير النصوص والوقائع والأنماط المختلفة للســلوك[٧]، فعلى سبيل المثال يرى المفكّر الجزائري محمّد آركون أنّه ينبغي أن نقــرأ قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ﴾ (النســاء: ١١) بعــد الاطّلاع على وضع المرأة في

---

١. م. ن، ١١٧.

٢. م. ن، ٣١٦.

٣. م. ن، ١٢٦.

٤. م. ن، ١٤٧.

٥. مكي العاملي، القواعد والفوائد.

٦. م. ن، ١٦٩.

٧. أركون، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينيّ.

السـياق التاريخيّ الذي نزلت فيه الآية الكريمة، فحكـم الآية انعكاس له ولا يمكن أن تكون عابرة للزمان والمكان[١]، وتعود فكرة ربط النصوص بالدوافع التاريخيّة المنبثقة من زمان ومكان محدّدين وتقييدها بهما إلى الفيلسـوف الألمانيّ غادامير (٢٠٠٣م)[٢]، ولا شكّ في أنّ تطبيقها على النصّ القرآنيّ ينتهي إلى القول بنسـبيّة الأحكام القرآنيّة، وانسـجامها مع أحوال القرن السابع الميلاديّ فقط، وهذا ما يتنافى مع عالميّة الرسالة الخاتمة وهدف القرآن الكريم في الهداية وتنظيم الحياة البشريّة[٣].

**رابعًا: مصادر مونتغمري الإسلاميّة**

كانت مصـادره التي اعتمدها قد أثّـرت في تكوين نظرة ناضجة أكثـر، إذ إنّها قليلة، فقد اعتمد القرآن الكريم المترجم، وسـيرة ابن هشـام المترجمة، وصحيـح البخاري، وطبقات ابن سـعد، وبعض كتب التاريخ العام، وكتابات غربيّة متعدّدة عن النبيّ ﷺ، وربّما أفاد من كتابات الغزالي، التي لا تسعفه كثيرًا في موضوعه، وخلت قائمة مصادره من مصادر أخرى مهمّة، كما خلت من مصادر الشـيعة الإماميّة تمامًا التاريخيّة والروائيّة، ويبدو أنّ هذه الاشـكاليّة المنهجيّة وسمت أغلب المستشرقين في أعمالهم الكتابيّة عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام وتشريعاته.

مضافًا إلى ذلك فإنّ سيرة ابن هشام ليست نهائيّة ولا حاسمة، وفيها الغث والسمين الذي ينبغـي أن يتعامل معها الباحث بمعايير خاصّة في النفي والاثبات والتشـكيك، كما أنّ مراجعة تفاسـير القرآن الكريم بنوعيها السنّيّ والشـيعيّ له أثر مهم في حسم التصوّرات الصحيحة أو القريبة مـن الواقع في فرز الموضوعات التاريخيّة التي تتنافى مع القـرآن الكريم، فمثلًا نجد أنّ مونتغمري تقبّل قصّة الغرانيق العلى أو ما يسمّيها بـ(الآيات الشيطانيّة) كمسلّمة تاريخيّة، وإن

١. اركون، التشكيل البشريّ للإسلام، ١٤٦.

٢. أبوزيد، إشكاليّات القراءة وآليّات التأويل، ٣٧-٤٢.

٣. مـن الكتـب التي عالجت هذه الفكرة معالجة مسـتوفية: لاريجاني، المعرفـة الدينيّة في نقد نظريّـة د. سروش؛ أحمد، العلمانيّون والقرآن الكريم، تاريخيّة النصّ.

حاول تسـويغها -بذكاء- بما لا يتنافى مع التوحيد الذي بشّر به النبيّ ﷺ[١]، وقد أدّى التسـليم بهذه القصّة من دون تحقيقها وتمحيصها أن يسـتنتج منها أنّ فكرة التوحيد لم تكن بعد متبلورة عنـد النبيّ ﷺ!، وأنّ النبيّ كان على اسـتعداد لقبول عبادة كائنات أخـرى أدنى من الله[٢]!، بل جعل (الآيات الشـيطانيّة) تاريخًا أرّخ بها موعد الهجرة إلى الحبشـة بأنّه كان بعد نسخها[٣] وهذا من تأثير نظريّة فلسـفة العلـم التي ترى أنّ المعرفة الدينيّة تاريخيّـة، وأنّها تنمو كما ينمو الكائن الحيّ، وتتطوّر تدريجيًّا[٤]. كما تقبّل فكرة أنّ آباء النبيّ وأجداده كانوا كفّارًا، وأنّ النبيّ ﷺ صرّح بأنّ عبد المطلب في النار، وكان هذا التصريح أحد الأسباب المهمّة التي أجّجت عداوة عمّه أبي لهب[٥]، وكان يمكن أن يتجاوز هذه الموضوعات الروائيّة وما يترتّب عليها من مضاعفات، فيما لو أطلّ على مصادر التاريخ والتفسـير والحديث عند الإماميّة التي تسفّه بالدليل القاطع (قصّة الغرانيق العلى) وتجمع بالبرهان على إيمان آباء النبيّ ﷺ.

وفي هذا السياق، أرسل مونتغمري فكرة أنّ رسول الله ﷺ لم يفكّر في مستقبل قيادة الدعوة بعد وفاته إرسـال المسلّمات[٦]، وهذا يتناقض مع تحليله المسـتمر في أنّ النبيّ ﷺ كان له أهداف اسـتراتيجيّة وبعيدة المدى في تحركاته، من ذلك مثلًا، ذهابه بجيش كبير إلى دومة الجندل، فقد اسـتغرب مونتغمري من هذه الغزوة التي لا يرى لها مبرّرًا عسـكريًّا أو سياسـيًّا، ولكنّه أزال اسـتغرابه باسـتنتاج تخمينيّ من الصعب تجنّبه -على حدّ قوله- أنّ ثمّة علاقة بين هذه الغزوة والفتوحات اللاحقة التي جرت بعد وفاته، فقد كانت دومة الجندل الطريق التي مرّت على طولها الجيوش الإسـلاميّة لقهر الامبراطوريّة البيزنطيّة[٧]. وتحدّث عن مهارة النبيّ الإداريّة وحكمته

١. أبوزيد، إشكاليّات القراءة وآليّات التأويل، ٣٢، ٤١، ٤٦، ٨٢.

٢. م. ن، ٤٢.

٣. م. ن، ٨٨.

٤. سروش، القبض والبسط في الشريعة، ٣٧.

٥. وات، محمّد النبيّ ورجل الدولة، ١٠٣.

٦. م. ن، ٢٩٦

٧. م. ن، ٢٠٧، ٢٨٥.

في اختيار النـاس كمندوبين في الأمور الإداريّة التفصيليّة، فـلا يمكن -والكلام لمونتغمري- للمؤسّسـات والسياسات السـليمة الاسـتمرار، اذا كان القيام بتنفيذها يتمّ على نحو خاطئ ومتخبّـط[1]، ومع هكذا تحليل لمديات تفكير النبيّ وبراعته في الإدارة، فكيف ينحسر عن قضيّة مفصليّة وخطيرة، أعني بها عدم تفكير النبيّ بمستقبل قيادة الإسلام، وكيف يحدث ذلك والنبيّ يدرك أنّ عددًا معتدًّا به من القبائل العربيّة دخلت الإسلام في اليمن ومكّة والبحرين والطائف وحوالي مكّة بسـبب هيبة محمّدﷺ وطمعًا في تحالف قويّ يضمن سلامتها، وأنّها بمجرد زواله قد ترتدّ وتشكّل خطرًا بأثر رجعيّ على الإسلام، زد على ذلك الطامحين إلى مقاليد الحكم؛ ولذا فليس من الغريب أن تتسلّم عائلة أبي سفيان العدوّ اللدود للإسلام قيادة الأمّة الإسلاميّة بعد خمسـين سـنة من وفاة النبيّﷺ والتي معها بدأ العدّ التنازليّ عمليًّا للأمّة الإسـلاميّة بوصفهم حضارة ودولة كبرى سياسيًّا ودينيًّا.

وفي هذا السـياق يؤخذ عـلى مونتغمري إغفاله الحديث عن حادثة (يـوم الدار) التي تعدّ مفصلًا مهمًّا في دلالتها في النظام السـياسيّ الوليد مع الدعوة الإسلاميّة، وإغفاله هذا أوقعه في التقليل من أهمّيّة أن يكون عليٌّ عليه السلام هو أوّل من أسـلم؛ لأنّه كان صبيًّا! فيما رجّح أن يكون زيد بن حارثة هو أوّل مسـلم من الرجال كونه كان في الثلاثين مـن عمره، وكان يظهر محبّة وولاءً للنبيّ بما يفوق عليًّا حتّى[2]!، ولا نعلم متى كان السنّ معيارًا في تقويم الرجال، وهل أنّ طفولة المسيح تقلّل من أهمّيّته اللاهوتيّة في مقابل رجال الدين اليهود من الشيوخ والكهول؟، ثمّ جاء إغفاله عـن حادثة الغدير مكمّلة لحلقـات الإغفال تلك، على الرغم ممّا فيها من بُعد سـياسيّ واجتماعيّ تؤهّلها للنظر والتحليل في سياق الدعوة الإسلاميّة وآفاقها المستقبليّة، على الرغم من أنّـه عطف الحديث عن حجّة الوداع، وكلّ ما ذكره عن عليّ عليه السلام في كتابه: أنّ النبيّﷺ كان مولعًا بابـن عمّـه الأصغر عليّ بن أبي طالب عليه السلام... إلّا أنّه أدرك من دون شـك أنّ عليًّا لم يكن مؤهّلًا

١. م. ن، ٣٠٨.

٢. م. ن، ٥١.

لأن يغـدو رجل دولةٍ ناجحًا[١]! وهكذا جاء رأيه منحازًا وغير موضوعيّ ومبتسرًا، على خلاف عادتـه في الوقوف على الأحداث وتحليلها، كما لم يحلّل النمط الحجاجيّ الذي أفرزه الاختلاف حول خلافة النبيّ ﷺ في سقيفة بني ساعدة والنبيّ لمّا يدفن، وأشار فقط إلى حصول ضوضاء في مسألة الخلافة حتّى تمّ التوافق على أبي بكر[٢].

**خامسًا: رأي مونتغمري في شخصيّة النبيّ ﷺ**

يقرّر لنا مونتغمري حقيقةً لمسـها عن النبيّ محمّد ﷺ وهي: لم يحدث أن تمّ الافتراء على أيّ من رجال العالم الكبار كما افتري على محمّد ﷺ. بسبب العداء له ولرسالته[٣].

لم يقبل مـا قيل إنّ النبيّ محمّدًا ﷺ كان قاسي القلب وخشـنًا، ورأى أنّ لطفه مع الأطفال، وكثرة أصدقائه منهم، وبكاءه على الأيتام الذي قتل أبوهم في المعارك، شـاهدٌ على رقّة شـعور النبيّ ﷺ[٤]، بل امتدّ لطف النبيّ ﷺ حتّى طال الحيوانات[٥].

رفض بـضرس قاطع الوصف الذي أسـبغه منتقـدو النبيّ ﷺ، وخاصّـة في فترة القرون الوسـطى، حيث قامت أوروبا بتحريف اسـم النبيّ ﷺ إلى «ماهوند (mahound)» وهو اسم للشـيطان، وعدّ مونتغمري هذا النوع من السـلوك ردًّا انفعاليًّا بسبب التمدّد الإسلاميّ الذي ضمّ مولد المسيحيّة في سـوريا ومصر، وعدّ تلك الأفكار من (البروباغندا) الشائعة في التبشير المسـيحيّ[٦]، وهي تعني الترويج الذي يعتمد على التأثير في نفـس المتلقّي من خلال معلومات انتقائيّة، ومن دون موضوعيّة[٧]، واسـتخفّ بتفسير بعض المستشرقين بأنّ حالات النبيّ ﷺ مع الوحي ما هي إلّا إصابة بمرض (الصرع)، وكان من السـهل على مونتغمري ردّ هذه الأكذوبة

١. م. ن، ٣٠٠.
٢. م. ن، ٢٩٦.
٣. م. ن، ٣٠١.
٤. م. ن، ٣٠٠.
٥. م. ن، ٣٠١.
٦. م. ن، ١٥.
٧. موقع ويكيبديا الموسوعة الحرة. وتحدّث عن مظاهرها نعوم تشومسكي في كتابه: ماذا يريد العم سام؟، ٤٧.

باعتبار أنّ الصرع يؤدّي إلى تدهور بدنيّ وعقليّ، ولا يتفتّق عن تشريعات جديدة وأحكام للهداية والتنظيم[١]، وكذلك رفض بقوّة ما قيل عن النبيّ من أنّه دجّال ومحتال، أراد أن يرضي طموحاته بالسلطة من خلال تعاليم دينيّة اخترعها ليخدع الآخرين بها[٢]، مع أنّه -أي النبيّ نفسه- لم يكن مؤمنًا بها. وقد ردّ هذه الدعوى بطريقة علمانيّة تارةً وطريقة دينيّة، وحاصل الأولى أنّه لا يمكن أن يكون نجاح محمّدﷺ في بناء دولة وحضارة وولاء الملايين من الناس له عبر القرون على دجلٍ وأفكار لم يكن مؤمنًا بها. وحاصل الثانية: أنّه كيف يسمح الربّ لدين عظيم مثل الإسلام أن ينمو ويتطوّر على قواعد من الكذب والخداع[٣]؟

ورفض مونتغمري أيضًا الاتهامات التي وصفت النبيّ بأنّه كان شهوانيًّا ويبحث عن اللذائذ الجنسيّة مع النساء[٤].

أكّد مونتغمري أنّ النبيّ محمّدًاﷺ لم يكن صاحب دعوة دينيّة فحسب، بل أنّه جاء بنظام اقتصاديّ واجتماعيّ وسياسيّ، وكان الدين في ذلك النظام يشكّل جزءًا تكامليًّا، وأضاف في موضع آخر، أنّ الأنظمة الاجتماعيّة التي وضعها تنسجم وتتكيّف مع عددٍ من الظروف البيئيّة المختلفة في العالم، واستمرّت على مدى ثلاثة عشر قرنًا[٥]، وكان قد عدّ في موضع سابق أنّ نموّ الديانات العظيمة في العالم يعود إلى قدرتها على تكييف مبادئها للتطبيق في بيئات مختلفة، وأنّ النبيّﷺ بالنظر إلى براعته وحكمته استطاع أن يكيّف أفكاره في ظروف وبيئات مختلفة، وكانت هذه واحدة من أسس نجاحاته[٦].

وفي جواب سؤال طرحه مونتغمري، هل كان محمّد نبيًّا؟ أجاب ما نصّه: أنّه ليست كلّ الأفكار التي جاء بها محمّد حقيقيّة وصحيحة، إلّا أنّه من خلال نعمة الربّ وفضله عليه، تمكّن

١. وات، محمّد النبيّ ورجل الدولة، ٣٤.

٢. م. ن، ٣٠٣، وينظر: الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنيّة، ١٤.

٣. وات، محمّد النبيّ ورجل الدولة، ٣٠٣.

٤. م. ن، ٢٠١-٢٠٣.

٥. الصغير، المستشرقون والدراسات القرآنيّة، ٢٩٢.

٦. م. ن، ١٢٨.

من تقديم دينٍ أفضل لملايين الناس، أكثر ممّا كانوا عليه من قبل أن يشهدوا: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله.[١] وهذه شهادة ضمنيّة من مونتغمري أنّه يصدّق بدعوى النبيّ ﷺ في نبوّته، وأمّا ما أفاده من أنّ بعض ما جاء به النبيّ ﷺ لم يكن صحيحًا فهذا أوّلًا يتناقض مع الاعتقاد بأنّه نبيّ مرسل من الله تعالى، كما إنّه لم يحدّد بالضبط غير الصحيح هذا، هل هو في القرآن الكريم، أو في السنّة النبويّة؟ وأرجح الظن أنّه يعني السنّة النبوية، وتصوّره ناشئ من الطريقة الخاطئة التي تعامل بها مع السنّة النبويّة على ما أشرنا إليه آنفًا.

أورد مونتغمري تعريضًا واضحًا عن تقصير المسلمين بتقديم الصورة الأفضل والكاملة عن قضيّتهم لبقيّة العالم، من خلال تقصّي (الكونيّ) في حياة محمّد ﷺ، أو إظهار حياة النبيّ بوصفها نموذجًا مثاليًّا ممكنًا للإنسانيّة كلّها، تسهم في التطوّر الأخلاقيّ للبشريّة، فعند ذلك سيكون لبعض المسيحيّين القدرة على الاستماع والتعلّم[٢٣]-.

وأحسب أنّ مونتغمري من خلال هذا التعريض يشعر وجدانًا أنّ ذلك في حيّز الإمكان وأنّ شخصيّة النبيّ الأعظم ﷺ مؤهّلة لأن تكون قدوةً عالميّة. وهذا ما أكّده القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨)، وبقوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

---

١. م. ن، ٣١٢.

٢. م. ن، ٣٠٦.

٣. لم يعش مونتغمري ليرى النموذج الذي قدّمه بعض المسلمين لعكس صورة الإسلام ونبيّه للعالم، وربّما سيتأسّف كثيرًا، أعني نموذج القاعدة وداعش، اللتين برهنتا -وربّما عن عمد- للكتّاب الغربيّين الذين اتهموا النبيّ والإسلام بقبيح الأوصاف: الجريمة والغلواء الجنسيّ، فقد جسّد سلفيّو القاعدة وداعش عمليًّا هاتين الصفتين عبر هوس قطع الرؤوس وجهاد النكاح.

**لائحة المصادر والمراجع**

١. القرآن الكريم.
٢. أبوزيد، نصر حامد، إشكاليّات القراءة وآليّات التأويل، المركز الثقافيّ العربيّ، ط٩، ٢٠١٢.
٣. أركون، محمد، التشكيل البشريّ للإسلام، ترجمة: هاشم صالح، المركز الثقافيّ العربيّ، ط١، ٢٠١٣.
٤. ــــــــــــــــ، القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدينيّ، ترجمة: هاشم صالح، بيروت، دار الطليعة، ط٣، ٢٠١٢.
٥. حنفي، حسن، مقدّمة في علم الاستغراب، مصر، الدار الفنيّة، ١٩٩١.
٦. روزنبرج، أليكس، فلسفة العلم مقدّمة معاصرة، ترجمة: أحمد عبد الله السماحي، فتح الله الشيخ، المركز القوميّ للترجمة، ط١، ٢٠١١.
٧. سروش، عبد الكريم، القبض والبسط في الشريعة، النجف الأشرف، دار الفكر الجديد، ط١.
٨. سعيد، إدوارد، الاستشراق، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، ط١٠، ٢٠١٠.
٩. الصغير، محمّد حسين، المستشرقون والدراسات القرآنيّة، بيروت، دار المعارف، ط١، ٢٠١٥.
١٠. الطعان، أحمد إدريس، العلمانيّون والقرآن الكريم، تاريخيّة النصّ، الرياض، مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧.
١١. العاملي، محمّد ابن مكّي، (٧٨٦هـ)، القواعد والفوائد، تحقيق: الدكتور السيّد عبد الهادي الحكيم، النجف الأشرف، مطبعة الآداب، ١٩٨٠.
١٢. لاريجاني، صادق، المعرفة الدينيّة في نقد نظرية د. سروش، بيروت، دار الهادي، ب.ت.
١٣. وات، مونتغمري، محمّد النبيّ ورجل الدولة، ترجمة: حمود حمود، دمشق، سوريه، دار التكوين، ٢٠١٤.